الاقتصاد الرعوي وتطور النظم الاجتماعية في السودان في فترة العصر الحجري الحديث (٥٠٠٠ – ٣٠٠٠ ق.م)

أزهري مصطفى صادق

Abstract: This paper investigates the aspects of pastoral economy and the development of the social structures during the Neolithic and beyond. Social differentiation appeared among Sudanese herders by the 6th millennium BP. Clusters of especially rich graves of men, women, and children at many Neolithic sites argue for differences in wealth, but there is no evidence for social stratification. Pastoral intensification and a decrease in wild animal use are also evident at some sites in the Middle Nile after 5300 BP. However, whatever this social organization might have been, it should have left some material manifestations of its structure. The increasing importance of domesticated animals, for example, would be associated with the emergence of more individualized rights and responsibilities in economic management and this was assumed to have led to increased differentiation within such communities. It is clear that the social structure in the Sudan during the Neolithic period exhibited more or less inseparable economic and settlement patterns which are in turn witness to developmental stages extending from the Early Neolithic to the complex picture of the Bronze Age.

مقدمة

تشكل الحيوانات المستأنسة والبقايا الحيوانية عامة إحدى أهم أنواع المواد الأثرية لفهم التأثير الإنساني على البيئات الإقليمية والمحلية ومصادر البيئة الحيوية، وتعتبر دراستها حقلاً قائماً بذاته في علم الآثار (Zooarchaeology). وقد شكلت

الحيوانات البرية، ومصادر عدة من البيئة الحيوية كالأسماك والقواقع وغيرها، جزءاً مهماً من السجل الأثري في عصر الهولوسين، وفتحت المجال لفرضيات عدة حول استغلالها من قبل الإنسان، سواء من خلال الصيد المباشر أو التعديل غير المباشر باحتلاله للنظام البيئي للحيوان القديم. وقد نشأت خلال هذه الفترة أحد أهم التأثيرات البشرية على العالم الحيوي من خلال استئناس النوع البرّي الذي أدى إلى تعديلات جينيّة وسلوكية على الحيوان البري، وبالتالي تحديد حيزه الجغرافي. كما أدى إلى تأثيرات واضحة على حجم وكمية الثدييات البرّية والطيور والأسماك والقواقع والمصادر الأخرى، والتي اعتبرت بديلاً اقتصادياً مهماً وأساسياً بجانب الحيوان المستأنس. كما أثر بشكل أو بآخر على أنواع مختلفة من الحيوانات بانقراضها أو تقليل حجمها السكاني.(١)

بالتوازي مع المواد الحيوانية، تشكل النباتات ثاني الفئات الكبيرة من الأدلة الأثرية، والتي يمثل العثور عليها حقلاً مهماً لمعطيات علم النباتات القديمة. ويتم التمييز هنا بين المواد النباتية الكبيرة (Macrobotanical) كالبذور والمكسرات والخشب والفحم وبين المواد النباتية الدقيقة (Microbotanical) كغبار الطلع وغيرها، ولكل منهما أساليب وطرق خاصة لدراستها قد تقدم أدلة حاسمة للاستئناس المبكر للنباتات وانتشار النظم الزراعية. وكما هو الحال في دراسات الحيوان القديم، توفر دراسة الأنواع المستنبتة والمواد المتفحمة والمستمدة من حرق الوقود في المواقد والأفران أو ما تبقى من النباتات البرية، ثروة من البيانات تدل على استغلال الإنسان للموارد النباتية. وليس أقل دليل على ذلك الدراسات التي أجريت على المخلفات النباتية

(١) D.K. Grayson (2001) "The archaeological record of human impacts on animal populations", *J. World Prehist.* 15, pp. 1-68.

المبكرة ومحاولات العلماء فهم تأثير النار على الحيز الطبيعي للإنسان الأول، وهو من المواضيع التي لاقت كثيراً من الجدل بين علماء الآثار وعلماء الانثروبولجيا. غير أنه، ومع بداية الهولوسين قبل ١٠٠٠٠ سنة مضت، أو في وقت سابق، ربما مثلت الحرائق المتعمدة وغير المتعمدة من الإنسان، وقبل وقت كاف من استئناس الحيوان والنبات، عواقب وخيمة على المناظر الطبيعية، وخاصة في المناطق الجافة. ويتجلى هذا أكثر وضوحاً في أستراليا، حيث تزامن وصول البشر قبل حوالي ٤٠٠٠٠ سنة مضت مع زيادة واضحة في حجم جزيئات الفحم في الأحواض الرسوبية والبحيرات وانخفاض واضح في أنواع معينة من الأشجار كالصنوبريات وغيرها من أصناف الغابات المطيرة.(٢)

مع مرور الوقت وخاصة مع بدايات عصر الهولوسين كشف السجل الأثري على أن علاقة الإنسان بالنباتات قد أخذت حيزاً بعيداً ظهرت مع التجارب الأولية نحو استئناس النبات والزراعة، وبدأت تظهر محاصيل الحبوب والقمح والشعير في مستوطنات ما قبل الفخار في الهلال الخصيب في جنوب غرب آسيا منذ ٨٥٠٠ قبل الميلاد.(٣) وانتشرت فيما بعد النظم الزراعية المتقدمة من هذه المنطقة الأساسية، كجزء من عملية التوسع السكاني في جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط وأوروبا وإلى مصر وشمال أفريقيا، وشرقاً حتى باكستان. وقد سرد عالم الوراثة النباتية هارلان(٤) أكثر من ٤٥٠ نوعاً من النباتات المزروعة في قائمة "قصيرة"، مما يدل على أن الآثار المترتبة

(٢) R.L. Clark (1981) "Bushfires and vegetation before European settlement", in *Bush Æres: Their Effect on Australian Life and Landscape*, ed. by P. Stansbury. Sydney: Univ. Sydney Press, pp. 61–74.

(٣) P. Bogucki (1999) *The Origins of Human Society*. Oxford: Blackwell Publications.

(٤) J.R. Harlan (1992) *Crops and Man*. Madison, WI: Am. Soc. Agron., 2nd ed.

على هذه العملية الجماعية للاستئناس قد تذهب أبعد بكثير من المستوى الجيني، الشيء الذي قاد مع مرور الوقت إلى توسع كبير في زراعة النبات والنظم الزراعية، وفي نهاية الأمر إلى مزيد من التنمية الزراعية التي وضعت الأساس للاستقرار الدائم المرتبط بالإقامة (Sedentism) وحياة القرية، ومن ثم النظم الاقتصادية القائمة على السيطرة على الفائض (وبالتالي ظهور عدم المساواة)، وأخيراً، التمدن. وصحب ذلك تأثير كبير للإنسان على البيئة المحيطة، وتآكل كثيف للتربة بسبب الإفراط في الزراعة المكثفة علاوة على التأثيرات الثانوية للقرى وسكان المناطق الحضرية (استغلال الموارد والخشب للوقود والبناء؛ والصيد وصيد الأسماك لإطعام عدد أكبر من السكان)، مما أسفر عن تعديلات لا رجعة فيها في المناظر الطبيعية في مناطق واسعة وعلى نحو متزايد خاصة في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية والمعتدلة. وفي حين يرى البعض أن المناخ كان المحدد "الأولي للغطاء النباتي في الشرق الأدنى حتى العصر البرونزي"، فإنه "ومنذ ٣٠٠٠-٢٠٠٠ ق.م بدأ للتراكم المتزايد للزراعة والرعي وما يرتبط بهما من ارتفاع عدد السكان تأثير على ذلك الغطاء، على الأقل في بعض المناطق، وربما أكبر من تأثير المناخ".(٥)

ويعتبر نقل الحيوانات والنباتات المستأنسة بعيداً عن نطاقاتها الجغرافية التي احتلها السلف البري نتيجة واضحة للتصرفات البشرية، غير أن هذه التصرفات تمتد كذلك للعديد من الأنواع غير المستأنسة. مع ذلك فإن واحدة من أكبر المشكلات التي تواجه الباحثين هي الربط بين النبات والحيوان المستأنسين من جهة، والتأثير أو التعديل البشري في ذلك من جهة أخرى. وهذا واضح خاصة في المناطق التي

(٥) N.F. Miller (1997) "The macrobotanical evidence for vegetation in the Near East, c. 18,000/16,000 BC to 4,000 BC", *Pal´eorient* 23, p. 205.

يستحيل فيها وجود السلف البري للحيوان أو النبات وينتفي بالتالي الدور البشري المحلي في استئناسهما، ويبقى الحديث حول كيفية انتقالهما وتقبلهما كوافد جديد على بيئة لم تمارس فيها أية محاولات سابقة للاستئناس.[٦] وهذا مثالي بشكل خاص عند الحديث عن الاستئناس في نهر النيل الأوسط، حيث يعتبر إنتاج الطعام (Production Food) أكثر المواضيع التي وجدت الاهتمام لدى الباحثين العاملين في مجال دراسات العصر الحجري الحديث في هذه المنطقة. ونتيجة لكثرة القضايا والفرضيات المتصلة بهذا الموضوع، وأهمها أصل الحيوانات والنباتات المستأنسة في السودان، فقد سعى بعض الآثاريين إلى ربط هذا التطور الاقتصادي الجديد بالمناطق المجاورة في شمال إفريقيا والصحراء الكبرى، وسنحاول في هذا الجزء تلخيص بعض الآراء الخاصة بأصل إنتاج الطعام في السودان، والعلاقة بين المواقع السودانية ومثيلاتها في شمال إفريقيا والصحراء الكبرى.

النظام الرعوي

يرى البعض أن أصل الاستئناس داخل السودان لا تسنده أية دلائل ثقافية أو أحيائية، باعتبار أن الحيوانات المستأنسة المعروفة في وسط وشمال السودان (الضأن والماعز والأبقار)، والتي تمثل الحيوانات المستأنسة الرئيسة في العصر الحجري الحديث، لا يمكن أن يكون قد تم استئناسها محلياً، وذلك لأنه لا يوجد لها أية أسلاف برية داخل السودان.[٧] وهناك اعتقاد أن هذه الأنواع المستأنسة قد أدخلت

(٦) أزهري مصطفى صادق (١٩٩٩)، حقيقة انقطاع الاستيطان البشري في وسط السودان، ٢٢٥٠–١٠٠٠ ق.م.، رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة الخرطوم.

(٧) انظر مثلاً:

L. Krzyżaniak (1978) "New light on early food-production in the Central Sudan", *Journal of African History* 19, pp. 159-172.

إلى السودان من الشمال، أي من مصر ومن الصحراء، حيث وجدت دلائل تؤكد أنها قد ظهرت في فترة مبكرة هناك، وأن دور جامعي الطعام في السودان أنهم تكيفوا معها فحسب.(٨) مع ذلك لا نستطيع استبعاد استئناس البقر البري، لأن السودان يمثل جزءاً من المستوطن الطبيعي له. غير أنه ليس هناك دليل يثبت الدور المحلى لعملية الاستئناس في السودان، وذلك لأن هناك حاجة للاستمرار في البحث عن هذه الدلائل، وبصورة خاصة المتعلق باستئناس الأبقار البرية (Aurochs)، حيث أن هناك معلومات تؤكد أن هذه الأبقار البرية قد عاشت، رغم اصطيادها في نهر عطبرة، في نهاية العصر الحجري القديم حوالي ١٠٢٣٠ سنه مضت.(٩)

بخلاف البقر المستأنس، فإن الضأن والماعز لم يتم استئناسهما محلياً في إفريقيا، وذلك لأنهما لم يظهرا بأشكالهما البرية، ولكنهما أدخلا أولاً إلى مصر من جنوب غرب آسيا، ثم أُدخلا إلى السودان عبر نهر النيل، حيث وجدت عدة دلائل لهما في الصحراء الغربية قبل ٧٠٠٠-٦٢٠٠ سنه مضت.(١٠) في الجانب الآخر، كان "آركل" قد أشار إلى أن الماعز المستأنس الذي عثر على عظامه في الشهيناب مماثل للماعز المعروف بالماعز القزمي (Goat Dwarf) والذي يعيش اليوم في الجزائر، وأنه قد أُدخل إلى نهر النيل من الجزائر عن طريق تبستي في الصحراء الكبرى.(١١)

(٨) نفس المصدر، ص ص ١٥٩-١٧٢.

(٩) A.E. Marks (1987) "Terminal Pleistocene and Holocene hunters and gatherers in the Eastern Sudan", *African Archaeological Review* 5, pp. 79-92.

(١٠) F. Wendorf *et. al*. (1984) "New radiocarbon dates on the cereals from Wadi Kubbaniya", *Science* 225, pp. 645–646.

(١١) A.J. Arkell (1953) *Shaheinab*. London: Oxford University Press, pp. 104-105.

إذا أمكننا أن نتفق على دخول الحيوانات المستأنسة من الشمال ومن الصحراء فليس واضحاً بأي نوع من النشاط البشري دخل في السودان. وهناك فرضيات قد دعمت الرأي القائل أن دخول الحيوانات المستأنسة في العصر الحجري الحديث إلى السودان كان نتيجة لهجرات الرعاة من الصحراء خلال الهولوسين المبكر، ويعتقد أن هؤلاء الرعاة قد هاجروا بحيواناتهم جنوباً على طول النيل، حاملين معهم ما سمي بتقنية الرعي (Technology Pastoral).[١٢] كما افترض كريزيزانياك أن تقبل الحيوانات المستأنسة من قبل جامعي الطعام في السودان قد نتج عن طريق شبكة تبادل عملية طويلة المدى، وذلك قبل العصر الحجري الحديث، واستدل على ذلك بوجود قواقع بحرية (استخدمت كخرز) في السقاي، وهي توجد أصلاً في مياه المحيط الهادي والبحر الأحمر، وكانت معاصرة لموقع السكن المحلي في السقاي، والذى يؤرخ إلى ٧٤١٠-٧٢٣٠ سنه مضت.[١٣] والحقيقة أن نظام التبادل هذا قد بدا واضحاً بحلول الفترات المبكرة من العصر الحجري الحديث في السودان، حيث استخدمت القواقع البحرية كخرز، وبدأ ظهور الحجر الأمازونى في منطقة الخرطوم، وبصورة خاصة في موقع الشهيناب، حيث يرى "آركل" أنه قد تم استجلابه وإدخاله من منطقة تبستي.[١٤]

(١٢) F.A. Hassan (1986) "Chronology of Khartoum "Mesolithic" and "Neolithic" and related sites in the Sudan: Statistical analysis and comparison with Egypt", *The African Archaeological Review.* 4, pp. 83-102.

(١٣) L. Krzyżaniak (1992) "Some aspects of the later prehistoric development in the Sudan as seen from the point of view of the current research on the Neolithic", in *Études nubiennes. Conférence de Genève. Actes du VIIe Congrès International d'Études Nubiennes 3-8 Septembre 1990*, Vol. I, ed. by Ch. Bonnet, Genève, pp. 267-273.

(١٤) A.J. Arkell, *op. cit*.

في الجانب الآخر، افترضت "كانيفا" وجود اتصالات ثقافية بين النيل والمواقع الصحراوية منذ العصر الحجري الوسيط، وترى أن هذه الاتصالات قد نشأ عنها انتقال الحيوانات المستأنسة والنشاط الرعوي إلى السودان.(١٥) وتم التركيز هنا بصورة خاصة على ما سمي بـ"عناصر الثقافة الصحراوية" (Saharan Cultural Elements)، والتي ظهرت في مناطق خارج النيل مثل شق الدود، والذي يشير إلى وجود مظاهر متنوعة للفخار، وهي مظاهر لم توجد في منطقة الخرطوم، خاصة في الزخرفة.(١٦) إضافة إلى ذلك، افتُرض وجود مظاهر ثقافية مشتركة بين المجموعات التي تسكن المناطق بين النيل وجبال اندى وتبستي (Ennedi/Tibesti) في الصحراء الكبرى، وإلى الغرب من نهر النيل، وذلك خلال الألف السابع ق.م. وقد مثلت هذه الاتصالات شبكة كبيرة قبل انتشار الرعي، ثم شملت معظم مناطق نهر النيل والمرتفعات الشرقية في نهاية الألف الخامس ق.م.(١٧)

يتضح لنا مما سبق وجود رأيين حول أصل الحيوانات المستأنسة في نهر النيل الأوسط: الأول يرى أن هذه الحيوانات قد وصلت إلى نهر النيل الأوسط من الشمال، أي من مصر، أما الرأي الثاني فهو يركز على وجود اتصالات قديمة تسبق العصر الحجري الحديث بين منطقتي النيل والصحراء، كان من نتائجها انتشار الرعي إلى نهر النيل الأوسط. ولكن يبقى أن نبحث عن أصل الحيوانات المستأنسة قبل دخولها

---

(١٥) I. Caneva (1993) "The Italian Mission for Prehistoric Research in Egypt and Sudan: Surveys and excavations in the Khartoum Province 1970-1989", *Kush* XVI, pp. 74-97.

(١٦) I. Caneva and A.E. Marks (1992) "Prehistoric surveys in the Upper Nile Valley: From site to region", in *Ètudes Nubiennes I, Actes du VIIe Congrès International d'Études Nubiennes*. 3-8 Septembre 1990, Vol. I, ed. by Ch. Bonnet, Genève, 1992, pp. 61-78.

(١٧) نفس المصدر.

إلى نهر النيل الأوسط، هل حدث ذلك بعد دخولها إلى شمال إفريقيا ثم إلى الصحراء، أم تطور إنتاج الطعام في شمال شرق إفريقيا ثم دخل إلى نهر النيل.

أما الدعامة الثانية لهذا الاقتصاد، وهى استغلال وزراعة النباتات المستأنسة، فهي لسوء الحظ فرضية بشكل عام. ونشير هنا إلى أن أغلب المخلفات النباتية من مخلفات فترة العصر الحجري الحديث في نهر النيل الأوسط محددة بالطبعات التي توجد في الفخار؛ وقد عُثر على عدد من هذه الطبعات في مواقع الزاكياب وأم ضريوة والكدرو والكدادة وغيرها، ومعظمها للذرة المعروف محلياً بالماريق (Sorghum Verticiliflorum)، بالإضافة إلى السلف البري للدخن (Vidacum Pennisetum) في موقع الزاكياب.[١٨] وفي دراسة لاحقة قامت بها آن استملر (Stemler Ann) عام ١٩٩٠ عن الطبعات النباتية على قطع الفخار في مواقع الكدرو والزاكياب وأم ضريوة والكدادة، أثبتت أن الذرة نوعٌ مماثل للنوع البري.[١٩] ومع ذلك لم تستبعد استملر وجود النباتات المستأنسة، حيث ترى أنه من الممكن أن هذا الذرة المشابه للنوع البري هو "مستأنس بدائي" (Domesticate Primitive) حسب تعبيرها، ولكنه مماثل بشكل كبير للنوع البري.[٢٠] وعلى أساس تعرفها على طبعات النباتات استنتجت استيملر أن أفضل تحليل معقول للدلائل في تلك المواقع أن مصادر النباتات البرية (والتي من الممكن أن تكون قد زُرعت) قد كانت بمثابة مصادر غذائية.[٢١] ومع ذلك

(١٨) R. Haaland (1987) *Socio-economic Differentiation in the Neolithic Sudan.* Oxford. BAR International Series 350. Cambridge Monographs in African Archaeology, p. 20.

(١٩) A.B. Stemler (1990) "A scanning electron microscopic analysis of plant impressions in pottery from sites of Kadero, El Zakiab, Um Direwa and El Kadada", *Archéologie du Nil Moyen,* Vol. 4, pp. 87- 98.

(٢٠) نفس المصدر، ص ٩٠.

(٢١) نفس المصدر، ص ٩٠ .

يعتمد تفسيرها بأن السكان قد زرعوا الذرة، على دليل غير مباشر. فعثورها على طبعات تلك الحبوب شئ وزراعتها شئ آخر. وحتى الأعداد الكبيرة من أدوات الطحن في هذه المواقع لا تدل على الزراعة، ولكن ازديادها في مواقع العصر الحجري الحديث قد يشير إلى اعتماد أكبر على الغذاء النباتي. وربما حفز ذلك السكان على القيام بنشاطات زراعية تزيد من مخزون الغذاء النباتي، ولا يكتمل هذا الاعتقاد الأخير إلا بالعثور على أدلة مباشرة على ذلك، أي العثور على كميات كبيرة من مخلفات تلك النباتات، وليس الأدلة غير المباشرة مثل أدوات الطحن. بالمقابل، هناك اختفاء نسبي للأدوات التي يمكن استخدامها في قطع سيقان الحبوب مثل المناجل. إن الأدوات الوحيدة التي تم اكتشافها ويمكن استخدامها كمناجل هي الشفرات. ومع ذلك نلاحظ تناقص أعداد هذه الأداة عند قياسها بمواقع العصر الحجري الوسيط، في حين يتوقع الباحث أن تكون هذه الأدوات متزايدة أعدادها إذا كانت قد استخدمت في حصد النباتات، قبل بدء السكان في زراعة النباتات المستأنسة كالذرة. في الجانب الآخر، يمكننا افتراض أن الكميات الكبيرة من أدوات الطحن وبصمات الذرة البري تشكِّل دليلاً على الاستغلال المكثف للنباتات منذ فترات العصر الحجري الوسيط، مع ازديادها نتيجة لازدياد أدوات الطحن خلال العصر الحجري الحديث.

ومع قلة الدلائل على النباتات وندرتها في عصر الهولوسين يظل الدور الذي لعبه إنسان نهر النيل الأوسط في تطويرها واستغلالها من الأمور التي يصعب التكهن بها. كما لا يمكن بأي حال من الأحوال معرفة الدور الذي لعبته النباتات المستأنسة في التكيف البشري لمجموعات عصر الهولوسين في هذه المنطقة. وكما ذكرنا سابقاً، فإن الدلائل الأثرية المباشرة التي تستخدم للاستدلال على الاستئناس، خاصة استئناس النبات، تعتمد في المقام الأول على مخلفات النباتات المستأنسة في المواقع، بينما تشتمل الدلائل غير المباشرة على أدوات تشمل أدوات الطحن التي لا

تزال تستخدم حتى اليوم، والمناجل، والفخار الذي يستخدم في التخزين، والفؤوس التي تستخدم في الحفر؛ فأيٌّ من هذه الدلائل يمكن استخدامها في السودان للاستدلال على استئناس النباتات. فالدليل الأول - مخلفات النباتات – لا زال في بدايته ولم يتم إثباته بشكل كامل، بل أن أقدم دليل فعلي على الذرة المستأنسة في السودان قد عُثر عليه بعد فترة طويلة من العصر الحجري الحديث، وهو من النوع المعروف باسم (Sorghum Bicolor) الذي عُثر عليه في موقعين في السودان، هما جبل تومات بالجزيرة، ويؤرخ إلى ٢٤٥±٦٩ ق.م،(٢٢) وفى منطقة قصر أبريم أقصى شمال السودان، ويعود تاريخه إلى ١٢٧±٢٠ ق.م.(٢٣) كما عُثر على هذا النوع في منطقة واسعة في شمال شرق إفريقيا من بداية العهد المسيحي.(٢٤) بالرغم من ذلك هناك إشارات على ظهور الذرة المستأنسة في وقت مبكر في شرق السودان في مواقع دلتا القاش السابقة لمواقع نهر النيل، حيث عُثر على عدة طبعات للذرة المستأنسة في شغف الفخار أرخت إلى الألف الثاني قبل الميلاد.(٢٥) أما أدوات الطحن، فإنها قد استخدمت منذ العصر الحجري الوسيط، كما أنها يمكن أن تستخدم للنباتات المستأنسة والبرية على حد السواء. أما الفؤوس والمناجل، فإننا لا زلنا بحاجة إلى دليل شامل على استخدامها كادوات زراعية خلال فترة العصر الحجري الحديث.

(٢٢) J.D. Clark and A. Stemler (1975) "Early domesticated sorghum from Central Sudan", *Nature* 254, pp. 588-591.

(٢٣) P. Rowley-Conwy (1991) "Sorghum from Qasr Ibrim, Egyptian Nubia, c. 800BC-1811AD: A preliminary study", in *New Light on Early Farming*, ed. by J. Renfrew. Edinburgh: Edinburgh University Press, pp. 191- 212.

(٢٤) نفس المصدر، ص ٢١١-٢١٢.

(٢٥) L. Constantini *et. al.* (1984) "Gash Delta Archaeological Project: 1982 field season", *Nyame Akuma* 23, pp. 17-18.

النظم الاجتماعية

حقق علم آثار الاستيطان خلال العقود الخمسة الماضية تقدماً في المفاهيم النظرية والمنهجية، وكذلك في التنوع الجغرافي للمحيط الطبيعي الذي دُرس بشكل مكثف. ومن هذه الدراسات أيضاً دراسة أنماط استيطان المجتمعات البشرية خلال الهولوسين وتطورها من المجتمعات القروية البسيطة إلى المراكز الحضرية، وفي نهاية المطاف إلى الدول والإمبراطوريات التي تربطها الطرق وشبكات النقل التي تغطي مناطق شاسعة.(٢٦) وفي هذا الإطار كانت هناك محاولات قليلة فيما يتعلق بالواقع السوداني في فترة الهولوسين، بالرغم من أن أغلب هذه المحاولات لم تركز على نمط المستوطن نفسه، بل مجموعة من المستوطنات في إقليم جغرافي واسع. وكمثال على ذلك، دراسة انتشار المواقع جغرافياً على الوديان القديمة في دنقلا(٢٧) ووادي هور(٢٨) والعلاقة بين المستوطنات الرئيسة والموسمية،(٢٩) أو العلاقة بين المواقع التي تنتشر على المجاري المائية الرئيسة ومثيلاتها في السهول القريبة أو الداخلية.(٣٠) إلا أن هذه الدراسات افتقرت إلى كيفية تشكيل المشهد الجغرافي للموقع من خلال عمليات طويلة الأجل من استيطان الإنسان، وأحياناً من خلال دورات متعددة من التوسع

(٢٦) انظر مثلاً:

C.D. Trombold (ed.) (1991) *Ancient Road Networks and Settlement Hierarchies in the New World*. Cambridge: Cambridge Univ. Press.

(٢٧) D. Welsby (2001) *Life on the Desert Edge: Seven Thousand Years of Settlement in the Northern Dongola Reach*, Vol. II. London: SARS.

(٢٨) R. Kuper (1989) "The Eastern Sahara from North to South: Data and dates from the B.O.S. project", in *Late Prehistory of the Nile Basin and the Sahara*, ed. by L.Krzynaniak and M. Kobusiewicz. Poznan: Polish Academy of Sciences, pp. 197–203.

(٢٩) R. Haaland (1997) "Emergence of sedentism: New ways of living, new ways of symbolizing", *Antiquity* 71, pp. 374-385.

(٣٠) A. Mohammed-Ali (1984) "The Neolithic of Eastern Sudan and its implication for the Central Nile", *Nubian Culture - Past and Present* 17, pp. 76-86.

الاستيطاني، ونظام الانتقال، وفترات الأزمات، وإعادة التنظيم وغيرها، نسبة لافتقار معظم هذه المواقع التي درست – عدا في حالة موقع شق الدود مثلاً[٣١] – إلى طبقات متراصة، وتركيز البحث بشكل خاص على ملامح معينة من المستوطن (في حالة وجود جبانات متصلة بالموقع).

مع غياب دلائل البناء في مواقع العصرين الحجري الوسيط والحجري الحديث في السودان؛ فقد مثلت المدافن بديلاً ثقافياً مهماً لدارسة المجتمع وتركيباته. وهو نفس الحال بالنسبة لدراسة مواقع ما بعد العصر الحجري الحديث في أقصى شمال السودان في فترة ثقافة المجموعة (أ)، مع تركيز متساوٍ على المدافن والمباني في الفترات اللاحقة التي تتميز بنشاط بنائي واسع، خاصة في فترة حضارة كرمة (٢٥٠٠ ق.م – ١٥٠٠ق.م).

لقد بينت مجمل الدراسات التي تناولت المجتمع في منطقة نهر النيل الأوسط خلال الفترة الممتدة من ٥٠٠٠ – ١٥٠٠ ق.م أن السكان كانوا في بداية الأمر جماعات تنتشر في منطقة جغرافية واسعة، مع التركيز على نهر النيل الرئيس وفروعه ومجاريه المختلفة، غير أن أعدادهم كانت صغيرة ومنخفضة الكثافة خلال فترتي العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الحديث، وهي الفترة التي تغطي فترتي الهولوسين المبكر والأوسط (خريطة رقم ١–٢). وربما كانت التجارب الأولى مع حياة القرية التي يمكن أن تصل إلى مستوى من التنظيم الاجتماعي القبلي ترجع إلى العصر الحجري الحديث. وهناك تحول كبير في التنظيم الاجتماعي في شكل أقرب إلى المشيخات (Cheifdoms) مع نهاية هذه الفترة، التي ربما تميزت بمعايير أخرى كالسلطة "والتفاوت" الاجتماعي بين الطبقات الاجتماعية. ومع زيادة عدد

(٣١) نفس المصدر.

السكان، واتساع المناطق التي يتحركون فيها حدثت زيادة في استغلال الإنسان لبيئته الصغيرة (Microenvironment)، وربما امتد ذلك من خلال التنقل المستمر مع الماشية والحيوانات المستأنسة في أوقات مختلفة وإلى مناطق مختلفة.

وفي محاولة إثبات هذا التنظيم الاجتماعي، ركزت بعض الدراسات في مواقع العصر الحجري الحديث بالسودان بشكل أساسي على الأثاث الجنائزي أو محتويات القبر. وهنا كان الهدف الأساسي هو التعرف على التباين الاجتماعي بين سكان العصر الحجري الحديث وظهور المجتمعات المعقّدة في المنطقة.(٣٢) وكمثال لذلك، دراسات ليخ كريزيزانياك في موقع الكدرو على بعد ٤٨ كلم شمال الخرطوم، والذي قسمت مقابره المبكرة على هذا الأساس إلى أربعة أصناف وفقاً لثراء الأثاث الجنائزي. كما تم الاهتمام بالتوزيع المكاني لهذه المقابر بالجبانة. إنّ تطبيق هذا النوع من المنهج، على أية حال، اعتمد بشكل كبير على اتساع المقبرة وعدد القبور التي يمكن دراستها. وبعد دراسات متواصلة بالمقبرة استمرت على مدى أكثر من ٣٠ عاماً، تم التعرف على التكوين الاجتماعي لسكان العصر الحجري الحديث بالمنطقة، كما تعكسه مقبرة الكدرو على أنه يتكون من أربع درجات اجتماعية على رأسها المجموعة التي كانت مقابرها هي أغنى المقابر بالأثاث الجنائزي والذين أطلق عليهم كريزيزانياك لفظ "الصفوة".(٣٣) وقد جادل كريزيزانياك بأنّ المدفن "يعكس التركيب الاجتماعي العام للمجموعة الإنسانية المحليّة".(٣٤) كما افترض أن أغلب قبور الصنف الثّالث المتركزة في أجزاء معينة من المقبرة تمثّل "قبور الأفراد الذين يعودون إلى نخبة

(٣٢) L. Krzyżaniak (1992), *op. cit.*, pp. 267-273.

(٣٣) نفس المصدر، ص ٢٧٠.

(٣٤) نفس المصدر، ص ٢٧٠.

مجموعة العصر الحجري الحديث هذه"، بينما تعود المقابر المبعثرة القليلة الأثاث أو التي لا تحتوي على أي نوع من الأثاث الجنائزي إلى أفراد من الطبقة السفلى للهرم الاجتماعي لهذه المجموعة".(٣٥)

هذا يعني أن كريزيزانياك قد أسس منهجه العملي والنظري على مبدأين، هما نوعية الأثاث الجنائزي وكميته، وذلك لتحليل المركز الاجتماعي لهذه المجموعة، الشيء الذي قد يدلّ أيضاً على أن المركز الاجتماعي يلعب جزءاً مهماً في تقرير موقع القبور واتجاهاتها. إن العوامل التي تحكم توزيع الأثاث الجنائزي ليست واضحة رغم ذلك، إلا أننا لا نملك بداً من التفكير في أن يكون المركز الاجتماعي قد لعب دوراً رئيساً في هذا التوزيع، خاصة وأن أغلب الأدوات الكمالية (كالصولجان، والأواني الفخارية الخاصة، والزينة الشخصية المصنوعة من العاج أو الحجارة شبه الكريمة) قد وجدت في مقابر محددة.

هناك منهج مختلف بعض الشيء من الذي استخدمه كريزيزانياك اتبعته البعثة الفرنسية العاملة بالهيئة القومية للآثار والمتاحف السودانية بموقعي الغابة والكدادة بالقرب من شندي.(٣٦) وبشكل عام كان المنهج المتبع منذ البداية متجهاً نحو التركيز أكثر على المظاهر الاجتماعية في تحليل المقبرتين. وعلى ذلك درست المقابر بشكل أولي من خلال تعريف السمات الثقافية لها. بعد ذلك تم تحليل سلسلة من الخواص التي تعكسها المقابر لإعادة بناء نموذج لعادات الدفن التي تعكس تعقيداً اجتماعياً محدداً. كان التحليل مستنداً بشكل رئيس على تنظيم وانتشار القبور داخل الجبانة. وقد

(٣٥) نفس المصدر، ص ٢٧٠.

(٣٦) J. Reinold (1987) “Les fouilles pré-et proto-historiques de la Séction Française de la Direction des Antiquités du Soudan: les campagnes 1984-85 et 1985-86“, *Archéologie du Nil Moyen* 2. Association pour la Promotion de l’Archéologie Nilotique. Lille, pp. 17-67.

تم الاهتمام هنا بالتعرف على مجموعات محددة من المقابر من خلال دراسة علاقتها الاستراتجرافية أو الطبوغرافية. اعتبرت هذه المجموعات وحدات تعكس علاقات اجتماعية. كما اعتبر وجود أوانٍ فخارية معينة أو ضحايا حيوانية كعناصر مهمة في هذه الوحدات. واعتبرت جبانة الغابة كجبانة مخططة بشكل زمني وفقاً لطبوغرافيا الأرض، دفن بها أناس ينتمون لمجتمع مساواتي (Egalitarian).(٣٧) لقد لوحظت نفس الحالة في مقبرة الكدادة، بالرغم من أن وجود التماثيل الفخاريّة النسائية كانت ربما إحدى أهم الإبداعات،(٣٨) علاوة على أن بعض المقابر اعتبرت كإشارة على وجود التضحية البشرية التي قد تعتبر عاملاً مهماً على أن هذا المجتمع كان، بعكس مجتمع الغابة، يقوم على مبدأ التفاضل الاجتماعي.

تم تبني توجه مختلف في تنقيب مقبرة كدركة بالقرب من موقع كرمة الأثري وفي موقع الجيلي شمالي الخرطوم. ففي هذين الموقعين كان هناك اهتمام أكبر بالمنهج الانثروبولوجي وتحليل وضعيات الأثاث الجنائزي بالمقابر واتجاه الجثمان في جبانة كدركة، بينما حال العدد الصغير لمدافن العصر الحجري الحديث في مقبرة الجيلي من إجراء أية دراسة من هذا النوع الأخير، واُتُّجه عوضاً عن ذلك لدراسة الجبانة بالاستعانة بعلم الانثروبولوجيا الطبيعي وكيمياء العظام. وقد ساهم الاتجاه الأخير في التعرف على التغيرات في البناء الغذائي لمجموعات مختلفة في نفس الجبانة، وبالتالي اقتراح نموذج لنشاطاتهم الاقتصادية الخاصة وأنماط استيطانهم.(٣٩)

(٣٧) F. Geus (1991) "Burial customs in the Upper Main Nile: An overview", in *Egypt and Africa, Nubia from Prehistory to Islam*, ed. by W.V. Davies. London: Britich Museum Press, p. 58.

(٣٨) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٣٩) I. Caneva (1994) "New methods of data collection and analysis in Sudanese prehistoric archaeology", in *Nubia Thirty Years Later: Pre-publication of Main Papers, Society for Nubian Studies*, Eighth International Conference 11-17 September, ed. by F. Geus, Lille, pp. 82.

يتضح لنا هنا أنه، وبالرغم من تطور دراسات ومناهج عملية ونظرية خاصة في دراسة العادات الجنائزية في السنوات الأخيرة، والتي تركز على أن المقبرة يمكن أن تساهم في معرفة العقيدة والسياقات الاجتماعية للسكان، فإن الحالة السودانية، كما تعكسها التوجهات العملية والنظرية للباحثين في جبانات العصر الحجري الحديث، تبدو مختلفة قليلاً. فالمناهج المستخدمة إما أن تركِّز على تفسير الأثاث الجنائزي أو على المدافن نفسها كدليل للنظام الاجتماعي.[٤٠] وكلا المنهجين استخدما في دراسة جبانتي الغابة والكدادة. الميزة الرئيسة للمواقع الأربعة، في الكدرو والغابة والكدادة وكدركة، كانت وجود بضعة مقابر تحتوي على أثاث جنائزي غني قد يعكس نوعاً من المركز الاجتماعي. وبذلك فقد أدى هذان المنهجان إلى التسليم بالنتائج التالية لدى كثير من الباحثين في هذا المجال، وهي:

١- إن نوعية الأثاث الجنائزي تشير إلى المركز الاجتماعي. بكلمات أخرى، إن التغيّر في ممارسات الدفن يعكس تغيّراً في المركز الاجتماعي.

٢- درجة التشابه بين ممارسات الدفن في المناطق المختلفة تعكس وجود علاقات ثقافية محلية.

٣- من الواضح أنّ عملية التفاضل الاجتماعي حدثت في منطقة الخرطوم أثناء الفترة الطويلة السابقة للحياة المستقرة وبسبب التركيب الاجتماعي للمجتمع الرعوي.

(٤٠) أزهري مصطفى صادق وجمال جعفر عباس (٢٠٠٦)، "دور النظريات والمناهج الآثارية في تفسير المدافن في السودان القديم"، مجلة ادوماتو، عدد ١٣.

٤- يشكل التنظيم المكاني للمقابر داخل الجبانة بعداً مهماً لممارسات الموت (مثلاً توزيع المقابر في مقبرة الكدرو).(٤١)

ومما لا شك فيه أن لهذه المناهج عيباً كبيراً ومهماً، وهو الإهمال الواضح لدراسة العلاقة بين الجنس والعمر ونوعية الأثاث الجنائزي وكميته. علاوة على ذلك، فنحن لا نعرف العلاقة بين الأبعاد المختلفة للقبر ونوعية الأثاث الجنائزي وكميته. ويعود هذا في الأساس إلى قصور في المنهج من قبل الباحثين، وليس لقلة البيانات والدلائل، حيث أن هناك العديد من المقابر التي لم تنقّب أو التي أهملت بسبب ضيق الوقت. وبالتالي كان الاهتمام منصباً على تنقيب أكبر عدد من المقابر للكشف عن البقايا المادية كهدف أول متجاوزاً المغزى العميق للدفن نفسه والمعتقدات الكامنة والطقوس الدينية والسحرية المرتبطة به. بالتالي فإن التقارير المنشورة عن مواقع الدفن عادة ما تحتوي بالضرورة على الكشف الممل للمحتويات، الذي يناقش بتفصيل البقايا المادية، لكنه نادراً ما يتناول المفاهيم الجنائزية والمعتقدات نفسها.(٤٢)

وفي رأيي إن هذه المجتمعات المبكرة التي يمكن أن تكون أقرب إلى الجماعات الأسرية (Bands/Groups Family)، أكثر من كونها مشيخات، مهدت إلى ظهور القرى والمشيخات ومن ثم الدولة خلال فترة العصر البرونزي والتي تغطي زمنياً الفترة الممتدة من الألف الرابع ق.م إلى منتصف الألف الثاني ق.م (حوالي ٣٨٠٠ ق.م-١٥٠٠ ق.م)، والتي شهدت ظهور الثقافات/أو المجموعات النوبية في أقصى

(٤١) Azhari. M. Sadig (2010) *The Neolithic of the Middle Nile Region. An Archaeology of Central Sudan and Nubia*. Bergen: University of Bergen. Fountain Publisher (Uganda), pp. 61-62.

(٤٢) أزهري مصطفى صادق وجمال جعفر عباس (٢٠٠٦)، مرجع سابق.

الشمال (٣٨٠٠–١٥٠٠ ق.م) وحضارة كرمة جنوبي الشلال الثالث (٢٥٠٠–١٥٠٠ ق.م). وبطبيعة الحال، فإن تطور هذه الثقافات بالمعنى الذي ذكرناه (جماعة أسرية – قرية – مشيخة – دولة) لا تمثل تسلسلاً تطورياً متناسقاً، وإنما تعايشت هذه المراحل وتفاعلت بطرق معقدة على مدى آلاف السنين. وبشكل عام شهدت فترة العصر البرونزي تنمية المجتمعات القبلية، والمشيخات، والدولة بوتيرة يظهر فيها التغير الاجتماعي، والتغييرات المقابلة في حجم السكان، ونطاقها المكاني، وكثافة السكان.

تدل تركيبة مميزة من المواد المحلية والمصرية المستوردة على تطور واضح لما يمكن وصفه (بالثقافة الإقليمية المنفصلة) أو ما هو معروف عند جموع الآثاريين باسم المجموعة (أ) (Group-A).[٤٣] وتشير المواد الأثرية التي عُثر عليها في مدافن ومواقع هذه المجموعة على وجود النخب الإقليمية المرتبطة بالملوك المصريين المعاصرين في وقت متأخر من فترة قبل الأسرات. وعلى الرغم من أن أسس هذه العلاقة وسياساتها لم يعرف بشكل مؤكد، إلا أن أهداف المصريين آنذاك كانت معروفة، وتركزت في استخراج الذهب من الصحراء الشرقية، وربما عملت هذه النخب المحلية كوسطاء لنقل الكثير من الثروات من الجنوب. ومع ازدياد الحملات العسكرية المصرية في النوبة السفلى في بداية الألف الثالث قبل الميلاد اختفت هذه المجموعة بشكل غامض لم تعرف أسبابه حتى الآن. أما شمالاً فقد تأسست من جديد ثقافة بالنوبة السفلى (المعروفة هناك، بالمجموعة (ج)(Group-C))، والتى شكّلت البداية لسلسلة من الممالك الصغيرة/المشيخات، والتي تم تسجيلها في السجلات المصرية المعاصرة.

(٤٣) H.A. Nordstrom (1972) *Neolithic and A-Group Sites. The Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubia.* Upsalla: Scandinavian University Books.; B.B. Williams (1986) *The A-Group Royal Cemetery at Qustul: Cemetery L.* Chicago: The Oriental Institute of the University of Chicago.

وقد سمحت المواقع المتعددة لثقافات العصر البرونزي، ومن أهمها موقع كرمة بالقرب من دنقلا، بتحليل التسلسل التاريخي الذي شهد العديد من التقلبات في المسارات السكانية والثقافية وحتى البيئية. وذلك تطلب بيانات إحصائية صحيحة، من بينها تطبيقات علم الأجناس القديمة من خلال دراسة تركيبة البنية السكانية، والتي تشكل عدة متغيرات، منها الجنس والأعمار ونسبة الوفاة أو معدل الحياة. كما اُستفيد من علم الأمراض القديمة بالاعتماد على رصد الأنسجة الصلبة كالعظام والأسنان، والأنسجة وباستخدام تقنيات حديثة كالتحليل المجهري والإشعاعي للتشخيص. كما أعطي اهتمام خاص لدراسة حالة العظام (تفونومبي) لإكمال دراسة أمراض العظام، والتي تعطينا معلومات مهمة عن البيئة والحالة العامة للعظام بعد الممات، خاصة وأنها أساسية في دراسة الطقوس الجنائزية، والتي يلعب فيها علم الأجناس الطبيعي دوراً مهماً.

تركزت حضارة كرمة، والتي عرفها المصريون بمملكة كوش، في عاصمتها كرمة. والواضح أنها قد بدأت كقرية صغيرة في الفترة المعروفة باسم ما قبل كرمة (Pre-Kerma) ثم تطورت لتصبح المركز السياسي الذي هيمن على مدى ١٠٠٠ سنة على أكثر من ١٠٠٠ كم من وادي النيل والمناطق النائية.[٤٤] وبحلول الألفية الثانية قبل الميلاد أصبحت قادرة أن تشكِّل تهديداً كبيراً لمصر الفرعونية، ولم ينته هذا التهديد إلا عن طريق الاستيلاء على كرمة من قبل فراعنة المملكة الحديثة في مصر حوالي ١٤٥٠ قبل الميلاد.

(٤٤) Ch. Bonnet (ed.) (1990) *Kerma, royaume de Nubie*. Geneva: Musee d’Art et d’Histoire.

وكما هو الحال في مصر، لعب ظهور مثل هذه الأنظمة السياسية المتخصصة الحاكمة دوراً مهماً في تنمية المجتمعات الرعوية.[٤٥] وقد تم تحديد المظاهر المادية للكوشيين في تقاليد ثقافية متجانسة نسبياً، والمعروف امتدادها الآن على طول النيل حتى منطقة أبوحمد جنوباً.

في الجانب الآخر، يقدم موقع كرمة دليلاً مهماً على الاستغلال الأمثل للإنسان لبيئة جغرافية ذات طبيعية خاصة، وتحوّل الموقع مرة على الأقل بسبب ظرف بيئي يتعلق في الأساس بتحويل مجرى النهر. في هذا الموقع هناك دلائل مهمة عن الدفن وأنماط الاستيطان المدني المعقد الذي يغطي مساحة تبلغ حوالي ٢٠ هكتاراً ولمدة ١٠٠٠ عام الذي يميز أول مجتمع حضري في السودان. مع ذلك تظل علاقات هذا الاستيطان الحضري وعلاقته مع المحيط الطبيعي غير مفهومة تماماً. لقد كشف هذا الموقع عن جبانة واسعة بها أكثر من ٢٠,٠٠٠ من المقابر يصل قطر بعضها إلى ٧٠–٨٠م، مع المئات، وأحياناً الآلاف، من جماجم الماشية التى وضعت حول القبور، جنباً إلى جنب مع الفخار الناعم، والأعمال المعدنية، والواردات المصرية، وفي نهاية المطاف أعداد كبيرة من الضحايا البشرية.[٤٦] وقد فتحت دراسة هذه المدافن وعادة الضحايا البشرية الباب على مصراعيه لدراسة الروابط الواضحة بين السلطة الدينية وتطور "الملكية" الكوشية في كرمة. بالإضافة إلى ذلك، يشير التركيز الشديد على الثروة الحيوانية في الممارسة الجنائزية إلى أن النظام الرعوي كان عنصراً قوياً في الإقامة، وكذلك ذا أهمية رمزية، على الرغم من أننا لا نزال نمتلك القليل من البيانات المستخرجة من المواقع الاستيطانية خلال هذه الفترة المهمة أواخر الهولوسين.

(٤٥) K. Sadr (1991) *The Development of Nomadism in Ancient Northeast Africa*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

(٤٦) G.A. Reisner (1923) *Excavations at Kerma, pt I-III*. Cambridge.

منذ بداية الثمانينات من القرن العشرين نشأ برنامج متعدد التخصصات في غرب صحراء النيل في منطقة الاتصالات المحتملة بين شمال أفريقيا والصحراء الوسطى ووادي النيل. اضطلع هذا البرنامج الذي قادته جامعتا كولون وبرلين بألمانيا بمتابعة تطور الجماعات البشرية على مدى السنوات العشر آلاف الماضية ودراسة الاستجابات الاقتصادية والثقافية لعمليات التغير البيئي. استمر العمل منذ عام ١٩٩٥ تحت رعاية ما سمي بـ"مشروع أكاسيا" (السنط) (Arid Climate Adaptation and Cultural Innovation in Africa-ACACIA)، وقد أجريت عمليات المسح والتنقيب في وادي هور وفي المناطق المتاخمة لشمال وجنوب الصحراء.[٤٧]

شكل وادي هور في الماضي ممراً طبيعياً خلال المراحل المناخية الملائمة، وربط سلاسل شرق تشاد الجبلية بالهضاب والسهول المتاخمة للنيل شرقاً. مع ذلك لم يُعثر على دلائل للاستيطان البشري ما قبل حوالي ٦٠٠٠ قبل الميلاد، حينما استقرت جماعات من الصيادين تستخدم الفخار، واستغلت الموارد المائية الدائمة خلال موسم الجفاف والمراعي الموسمية خلال الأشهر الرطبة. وتتميز مرحلة لاحقة في وادي هور بثقافة أقرب لما عُثر عليه في أنحاء عديدة من النيل خلال الفترة الممتدة من بداية الألف السادس ق.م، وتميزت بفخار أشبه بما عُثر عليه في موقع العصر الحجري الحديث بالشهيناب شمال أمدرمان. وفيما بعد بداية الألف الرابع قبل الميلاد حدث تغير كبير، بظهور ثقافة مختلفة أطلق عليها اسم "أفق" (Leiterband) إشارة إلى نمط زخرفي في الأواني الفخارية التي صنعوها، وامتدت مواقعها زمانياً في الفترة الممتدة ما بين حوالي ٤٠٠٠–٢٠٠٠ قبل الميلاد. وقد وضح أن أقدم مراحل هذه الثقافة تشابه إلى

(٤٧) F. Jessi (2008) "Time of experimentation? The 4th and 3rd millennia BC in Lower Wadi Howar, Northwestern Sudan", in *Between the Cataracts: Proceedings of the 11th Conference for Nubian Studies*. Warsaw: Warsaw University (PAM Supplement Series Vol. 2.1), pp. 49-74.

حد كبير ثقافات العصر الحجري الحديث في وسط السودان، في حين أن مراحل لاحقة تظهر تقارباً أكبر مع المناطق إلى الغرب من وادي هور، مثل إندي، أو حتى بعض المواقع في مالي.[٤٨] وفي هذه الفترة ظهرت وسيلة جديدة للعيش، وهي الرعي المكثف للماشية. وفي وقت لاحق للألفية الثالثة ق.م شهد وادي هور جفافاً متزايداً، مع ذلك حدث تطور جديد تظهر ملامحه فيما سمي بـ"الأفق الهندسي" (Handessi) (٢٢٠٠-١١٠٠ قبل الميلاد) في وادي هور الأوسط. إلا أنه في هذه الفترة ازدادت أهمية الخراف والماعز أكثر من الأبقار، مع استمرار الصيد ولكن بدرجة أقل مما قبل. ويتضح جلياً أن ذلك كان استجابة مباشرة للجفاف المتزايد بوادي هور.

من خلال هذا السرد يتضح اختلاف الأنشطة البشرية في ما قبل التاريخ في مناطق مختلفة من منطقة وادي هور، أغلبها يعزى إلى التغيرات البيئية. ففي عصر الهولوسين الرطب تم استغلال أغلب مناطق وادي هور بشكل مكثف، باستثناء المنطقة الوسطى التي كانت رطبة جداً وذات مستنقعات متعددة، في حين أنه مع بداية "أفق" (Leiterband) تحول الاستيطان إلى وادي هور الأوسط. خلال الأفق الهندسي (Handessi Horizon) لم تعد منطقة وادي هَوَر السفلى ملائمة للاستيطان الدائم بسبب الجفاف المتزايد، بالرغم من أن الإقليم بأكمله كان لا يزال يستخدم باعتباره معبراً صحراوياً مهماً.

سادت إلى الشرق من نهر النيل وعلى طول الحدود الشرقية للسودان ونهر عطبرة العديد من الثقافات ذات الاستراتيجيات الاقتصادية والثقافية المتباينة. وقد حددت الدراسات الاستقصائية على طول نهر عطبرة العديد من المواقع على السهوب

(٤٨) نفس المصدر، ص ٦٨.

بين عطبرة والقاش، عرفت باسم "مرحلة الصاروبة" وتؤرخ زمنياً للألفية الخامسة قبل الميلاد.(٤٩) يعتقد أن سكان هذه المرحلة اعتمدوا في الأساس على صيد الحيوانات البرية (خاصة البقر الوحشي، والخنزير، والسحالي)، فضلاً عن جمع القواقع. مع بداية الألف الخامس يبدو أن الشرق قد اتخذ مساراً ثقافياً مختلفاً عن المناطق النهرية، بالرغم من أنه شهد وصولاً متأخراً للماشية المستأنسة، وربما في وقت لاحق للألفية الرابعة قبل الميلاد ومرتبطة مع ما سمي بمجموعة "البطانة"، التي انتشرت مواقعها على طول نهر عطبرة والمجاري القديمة لنهر القاش.

خلال هذه الفترة انتقل مسار القاش للشرق تدريجياً ليصل إلى مساره الحالي في الألفية الثانية قبل الميلاد. وطوال الفترة الممتدة من الألفية الثانية والثالثة اُستُوطنت أغلب مناطق دلتا القاش مع تزايد المستوطنات المتنوعة في أنحاء السهل الرسوبي فيما عرف بـ"مجموعة القاش".(٥٠) فيما بعد دلت المخلفات الأثرية من مواقع متعددة على نظام اقتصادي يعتمد في الأساس على الأبقار والأغنام والماعز، مع العديد من مخلفات أدوات الطحن وحفر التخزين وبصمات النباتات على الفخار.(٥١) وفي مراحل متأخرة من التطور الثقافي بشرق السودان يبدو أن التطورين الاقتصادي والاجتماعي قد سارا جنباً إلى جنب، مع دلائل متزايدة، خاصة من موقع محل تجلينوس، على أول نظام إداري مرتبط بالمجتمع في هذه المنطقة من السودان.(٥٢)

(٤٩) R.A.E. Fattovich et al. (1984) "The archaeology of the Eastern Sahel: Preliminary results", *The African Archaeological Review* 2, pp. 173-188.

(٥٠) D. Edwards (2004) *Nubian Past: An Archaeology of Sudan*. London: Routledge, p. 64.

(٥١) K. Sadr, *op. cit*., p.33.

(٥٢) نفس المصدر، ص ٦٤.

خلاصة وملاحظات

إن الناظر إلى الدراسات التي تناولت الفترة المبكرة والمتوسطة من الهولوسين في السودان والتغير الثقافي الذي صاحبها، يرى أنها تركز على ثلاثة مناهج رئيسة، هي النظام البيئي وتغيره، والهجرة وآثارها، والنظام الرعوي. فالنظام البيئي يقدم الأطر المكانية والزمانية التي تزدهر فيها المجتمعات الإنسانية، وهو يمثل جزءاً من المحيط الحيوي (Biosphere)، وهو ذلك الجزء من العالم الذي يمكن للحياة أن توجد فيه، والذي يشمل كل كائنات الأرض الحية المتفاعلة مع البيئة الطبيعية. ويتفاعل المجتمع مع البيئة غير الحية فيما يعرف بالنظام الحيوي أو الوحدة الحيوية (Ecosystem)، ويعني البيئة الكلية التي تشمل المواد الحية وموطنها البيئي غير الحي، أو أنه نظام من العلاقات وسط جماعة من الكائنات – سواء إنسانية أو حيوانية أو نباتية – يشتمل على تكيف هذه الجماعة مع البيئة غير الحية.[٥٣] وبذلك فإن النظام البيئي البشري يختلف عن النظم الأخرى، النباتية والحيوانية، في كثير من النواحي، خاصةً وأن المعلومات والتقنية والتنظيمات المختلفة التي يتفرد بها الجنس البشري ذات أهداف ومضامين مختلفة. كما أن الجنس البشري – سواء كان فرداً أو جماعة – ينسجم بطرق مختلفة مع موارد البيئة الطبيعية، ولا يفكر الإنسان في هذا الإنسجام بصورة موضوعية فحسب، بل يحوّل أيضاً البيئة الطبيعية لكي تتوافق وموضوعاته. وعليه فإن أية محاولة لإعادة تركيب البيئة بكامل جوانبها يتطلب مراعاة موارد البيئة ومحدداتها والطرق التي يستفيد من خلالها الإنسان من الموارد ويتدخل في البيئة ويغيّرها.

(٥٣) B.M. Fagan (1987) *In the Beginning. An Introduction to Archaeology*. Pennsylvania: Prentice Hall, p. 445.

لقد ظلت دراسة البيئة وعلاقتها بالثقافة في نهر النيل الأوسط أمراً شاغلاً لعلماء ما قبل التاريخ على مدى الثلاثين سنة الماضية، وكان دائماً يلح السؤال: هل يكفي الحديث عن المخلفات التي تركها الإنسان في تركيب البيئة القديمة لذلك الإنسان وثقافته؟ وهل يؤدي تدهور البيئة، أو فشل سعة البيئة، إلى الهجرة أو انقطاع للاستيطان البشري؟

كانت هناك محاولات رائدة لتطبيق نموذج نظري يعرف باسم "عدم التوازن البيئي/السكاني" (Environmental/Disequilibrium Population).(٥٤) وهو نموذج وضع في الأصل لتفسير كيفية نشوء نظام توازن في المناطق التي تتجمع فيها مصادر كثيرة للغذاء البري المتاح للمجتمعات التي تعتمد على الصتيد وجمع الطعام.(٥٥) ويتلخص هذا النموذج في أن هذه المجموعات سوف تحافظ على تعدادها بشكل متزن تحت سعة المخزون الغذائي المحلي، وعليه فلن يكون هناك ضغط باعث أو محرك لزيادة السكان أو للهجرة، لأن عدم التوازن بين السكان وسعة البيئة قد ينشأ من اتصال أنماط العيش بأحداث متغيرة داخل هذه البيئة ولا ينشأ إذا كان هناك توافق بين تلك الأنماط وسعة البيئة المحلية. غير أن الكثير من الدراسات التي حاولت مناقشة أمر سعة البيئة القديمة لمقابلة متطلبات الإنسان وتطوره لم توفق كثيراً في تقدير سعة البيئة تلك، إما لقلة البيانات أو صعوبة فهم محفزات الإنسان القديم، والضغوط التي واجهها رعاة العصر الحجري الحديث في بيئات تقدم عدة بدائل في المواسم الجافة (كالبيئة النهرية مثلاً). إضافة إلى ذلك، فمع الضغوط البيئية التي واجهها الإنسان

(٥٤) انظر A. Mohammed Ali, *op. cit.*

(٥٥) L.R. Binford (1968) "Post-Pleistocene adaptations", in *New Perspective in Archaeology*, ed. by S.R. Binford and L.R. Binford. Chicago: Aldine, pp. 313-341.

خلال عصر الهولوسين بتقلباته المختلفة، لابد وأن التنقل من مكان لآخر كان مهماً، غير أن تحول السكان من بيئة نهرية إلى بيئة سهلية مثلاً أمر يحتاج إلى كثير من الدلائل لإثباته. فدراسة أي مجتمع من مجتمعات ما قبل التاريخ فى بيئته الطبيعية يتطلب دراسة العلاقة بين مستوطناته ومجاله البيئي المحيط. ومثل هذه الدراسة يمكن القيام بها إن كانت هناك معرفة لخلفية البيئة المعينة التي ازدهرت فيها الثقافة وانتهت. بمعنى آخر، يجب تُدرس البيئة الثقافية والطبيعية كوسيلة للحصول على صورة متكاملة لكيفية انسجام تلك المجتمعات مع بيئاتها، والطريقة التي تتكيف من خلالها تلك المجتمعات مع هذه البيئات. كما أن أي انتقال لا يمكن أن يحدث ما لم تكن هناك مبررات لحدوثه، وآليات تتم من خلاله. ولكي يُميَّز تنقل الإنسان في السجل الأثري يجب أن يكتشف تتابع واضح لآثاره تلك، لا من خلال الافتراض، وإنما من خلال الأدلة الواضحة لهذا التنقل في المنطقة التي بدأ منها والتي انتهى إليها. وقد انعكس هذا الأمر في نمط الاستيطان بوجود ما يمكن تسميته بالمواقع الرئيسة كالكدرو والكدادة، وفي المواقع الموسمية مثل الزاكياب. كما افترض أن وجود النشاطات الرعوية في مواقع منطقة الخرطوم منذ بداية العصر الحجري الحديث قد استلزم وجود هجرات إلى مناطق أخرى، أهمها المنطقة التي تقع جنوب الخرطوم.(٥٦) تحاول هذه الفرضية إثبات الدور الذي لعبه اقتصاد تربية الحيوان في تغيير أنماط السكن والهجرة إلى مناطق أخرى. فقد أشارت الفرضية إلى أن سكان الخرطوم خلال العصر الحجري الحديث قد اعتمدوا على اقتصاد متعدد المصادر يعتمد بصورة أساسية على الزراعة وتربية الحيوان وصيد الأسماك، وأن زراعة الذرة مثلاً نشأت محلياً داخل شريط واسع يمتد من نهر النيل إلى بحيرة تشاد نتيجة للضغط على المصادر الغذائية. هذا

(٥٦) Haaland. R. (1984) "Continuity and discontinuity. How to account for a two thousand years gap in the cultural history of the Khartoum Nile environment", *Norwegian Archaeological Review*, Vol. 17, No. 1, pp. 39-51.

الضغط نشأ أصلاً مع زيادة السكان ونمو مجتمعات كبيرة مستقرة على طول النيل، مع تركيز كبير على المصادر المائية منذ بداية العصر الحجري الوسيط. وبالرغم من عدم معرفتنا للبداية الحقيقية لزراعة الذرة، فقد افترضت "هالاند" أنها قد بدأت على أقل تقدير مع بدايات العصر الحجري الحديث. وقد استند هذا التغير في إنتاج النبات على زراعة متنقلة (Shifting Cultivation)، وهي تتميز بالحق العام في الأرض والحقوق الفردية في المحاصيل الزراعية، بمعنى أن الإنسان كان يملك حق الانتفاع من الأرض طالما كان يزرعها. وقد تكامل هذا النوع الجديد من الاقتصاد الإنتاجي مع وجود حيوانات مستأنسة (الأبقار، الضأن، الماعز)، وهي تتميز بصفات إنتاجية مختلفة عن الزراعة؛ فهي تسبب زيادة في عدد القطيع بصورة مستمرة.

ومن خلال هذا الاختلاف في الإنتاج بين الحيوان والنبات، أشارت "هالاند" إلى أن هناك زيادة إنتاجية محتملة على الدوام في تربية الحيوان، بالإضافة إلى أنها تتطلب اهتماماً متواصلاً في كل زمان ومكان. ولذلك فإن الميل الواضح وسط الرعاة لزيادة أعداد الحيوانات يصبح أمراً واقعاً مع وجود مراعي مشاعة للجميع. ومع زيادة أعداد الحيوانات، وأهميتها المستمرة للسكان، افترضت "هالاند" أن ذلك يتطلب وجود أنماط سكن تتلاءم وهذه الزيادة وذلك الاهتمام. وتحت الظروف الطبيعية السافنا آنذاك فإن ذلك كان يتطلب أيضاً وجود تحركات دائمة، وعليه افترضت "هالاند" أن هذه العملية الاقتصادية الجديدة والتي أسمتها بالبداوة (Nomadization) لو كانت قد حدثت في منطقة الخرطوم فإنها قد تفسر إلى حد كبير الاختلاف في أنماط الاستيطان وخلو المنطقة من السكان في نهاية الأمر حوالي عام ٣٠٠٠ ق.م.[٥٧] مع ذلك فإن هذا الافتراض يفتقد للدلائل المادية القوية على حركة السكان وتبدو افتراضية إلى حد كبير رغم إمكانية حدوثها في الماضي. فالمواد الأثرية

(٥٧) نفس المصدر، ص ص ٣٩–٥١.

التي تم اكتشافها في مواقع العصر الحجري الحديث في نهر النيل الأوسط تحتوي على القليل جداً من المعلومات الخاصة بالتطورات الثقافية والاجتماعية التي جرت فيها. واستخدمت من أجل ذلك الوسائل المقارنة للبحث عن هذه المعلومات في المواقع المتسعة زمانياً ومكانياً مثل فرضية الحضارة المائية (Aquatic Civilization)، والتي حاول "سوتون" من خلالها إثبات أن المصادر المائية قد لعبت دوراً رئيساً في اقتصاد سكان العصر الحجري الوسيط في المنطقة الممتدة من بحيرات شرق أفريقيا عبر السافنا السودانية إلى المحيط الأطلنطي، مع تأكيده أن الامتداد المكاني لهذه الحضارة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالامتداد الحالي لما يسمى بمجموعة اللغات النيلية الصحراوية (Nilo-Saharan Languages)، وهذا يستلزم أيضاً وجود اتصال ثقافي يعود إلى انتشار الناس وارتحالهم عبر هذا التكيف المائي.[٥٨]

بذات الفكرة حُللت التحركات الموسمية لسكان النيل نحو المناطق الداخلية، حيث افترض عباس محمد علي أن مجتمعات العصر الحجري الحديث في نهر النيل الأوسط، والذين تحوّل اقتصادهم إلى تربية الحيوان، واستند عليه في نهاية الأمر، قد وجدوا صعوبات كبيرة في حصر أنفسهم بشريط ضيق من الأرض على طول ضفة النهر.[٥٩] فبالرغم من أن تلك المنطقة كانت غنية من ناحية الموارد الغذائية، إلا أن سعة البيئة النهرية (Carrying Capacity) ربما فشلت في دعم الضغط المتزايد على الرعي المكثف. ولعدة أسباب افترض عباس محمد علي أن منطقة البطانة قد تقدم

(٥٨) J. Sutton (1974) “The aqualithic civilization of Middle Africa”, *Journal of African History* 15, pp. 527–554.

(٥٩) A. Mohammed Ali, *op. cit.*, pp. 76-86.

البدائل المناسبة لهذا الضغط، وهي التحرك من وسط النيل إلى سهل البطانة، حيث لا توجد موانع بيئية أو طبيعية، بالإضافة إلى أن المكان في البطانة يقدم لكل فرد تعويضاً دائماً لأي ضغط في مصادره ينشأ عن الرعي المكثف. هذا الافتراض الأخير يبدو متوافقاً مع الدلائل المختلفة التي كشفت عنها هذه المنطقة خلال العصر الحجري الحديث، حيث نشأت في بداية الألف الرابع قبل الميلاد ثقافة عرفت بـ"ثقافة البطانة" حوت قرى زراعية تفوق مثيلاتها على امتداد وادي النيل وإفريقيا مساحة وتراكماً. وقد وصلت مساحة بعضها إلى ١٠ هكتارات وبعمق تراكمي يتجاوز المترين، وارتكز اقتصادها على البقر المستأنس وزراعة الذرة والدخن. كما حوت فخاراً جيد الصنع وتقنية حجرية عالية وأدوات زينة وفوارق اجتماعية.(٦٠)

في الجانب الآخر، شهدت دراسات العصر البرونزي في السودان تجريب عدة مناهج تقليدية؛ فقد كان رايزنر، كغيره من علماء المصريات الأوائل، من الذين يعولون كثيراً على مبدأ الانتشار الثقافي، وهي المدرسة التي ترى بأن التغير الثقافي يتم عبر ثلاث عمليات رئيسة، هي الانتشار والهجرة والغزو. وعلى هذا المبدأ، وباعتماده على المدافن وتحليلها، فسر رايزنر الثقافات السودانية بأنها نتاج انتشار للحضارة المصرية الفرعونية؛ وبمعنى آخر، نظر إلى التغير الثقافي على أنه نتاج آلي لهجرة مجموعات وافدة إلى المنطقة. كما أنه نظر لهذه الثقافات (التي أطلق عليها اصطلاح المجموعات النوبية الحضارية (أ، ب، ج الخ) كمجموعات منفصلة، وليست سلسلة من التواصل الثقافي المتطور لنفس المجموعة البشرية. علاوة على ذلك، فقد اقترح رايزنر

---

(٦٠) عباس سيد أحمد محمد علي (٢٠٠٥)، "على حافة المدنية: ظهور واضمحلال القرى الزراعية في سهل البطانة – شرق السودان"، المدينة في الوطن العربي، إعداد الأنصاري وآخرون. الجوف: مؤسسة السديري، ص ٦٥–٧٤.

اعتماداً على ما اعتقده من وجود اختلافات عرقية في الهياكل العظيمة في المدافن، ظهور مجموعتين عرقيتين في النوبة السفلى تمثلتا في ما سمّاه بالمجموعة (أ) التي نسبها إلى مجتمع عاش في شمالي أفريقيا، وهو من العنصر القوقازي الأبيض، والعنصر الزنجي الذي يغلب على ما سمّاه بالمجموعة (ب)، وبعض هياكل ما سمّاه بالمجموعة (ج).[٦١]

عمل بعض الباحثين لاحقاً (خاصة خلال الحملتين الإنقاذيتين الثانية والثالثة للنوبة السفلى) من خلال الأعمال الآثارية والبحوث المتعددة، على تعديل بعض افتراضات رايزنر، خاصة فيما يتعلق بأصل هذه الثقافات.[٦٢] وكان ذلك نتاج لحدوث تغيرات جذرية فيما يخص النظريات الآثارية وازدياد شكوك الآثاريين في النظرية العرقية وظهور نموذج الآثار الجديدة، والذي يرى أن المجتمع يتغير كنظام كامل.[٦٣] وكمثال لذلك أصبحت افتراضات رايزنر فيما يتعلق بأصل ما أسماه بالمجموعات، في طي النسيان بالنسبة للعديد من الباحثين، رغم أنهم ما فتئوا يذكرونها كحقائق لا يمكن تجاوزها. وقد أوضحت الدلائل التي وفرتها الحملة الثانية وحملة السد العالي أن المجتمع والثقافة خلال فترة هذه الثقافات قد انطبعا بسمات محلية خالصة. كما وضح أنه لا يوجد اختلاف بين المجموعة (أ) والمجموعة (ب)، مع وجود علاقة ثقافية قوية بين المجموعة (أ) والمجموعة (ج). وفي هذا السياق تجنب أحد أهم باحثي الثقافة النوبية، الأمريكي وليم آدمز (W. Adams)، في

(٦١) G.A. Reisner (1910) *The Archaeological Survey of Nubia. Report for 1907-1908*, Vol.I. Archaeological Report. Cairo.

(٦٢) كمثال انظر: H.A. Nordstrom, *op. cit.*

(٦٣) W.Y. Adams (1977) *Nubia Corridor to Africa.* Princeton: Princeton University Press.

كتابه "النوبة بوابة أفريقيا" (Nubia Corridor to Africa) التضمينات العرقية لكلمة مجموعة (Group)، واستخدم بدلاً عنها كلمة ثقافية أكثر اتساعاً وهي كلمة "الأفق" (Horizon)، واضعاً المجموعتين (أ) و(ب) في مصطلح واحد، هو الأفق (أ) (Horizon-A).(٦٤) وفي حين اتبع رايزنر ذات المناهج التقليدية في دراسته لحضارة كرمة، حاول السويسري شارل بونيه عدم تعجل النتائج، بل عمل على استخدام تقنيات علم الآثار واتباع أساليبه الحديثة في الحفريات، وأعطى وزناً متساوياً لمواقع الدفن ومواقع الاستيطان ومحاولة الوصول لمعرفة الأصول المحلية للثقافة.

(٦٤) نفس المصدر.

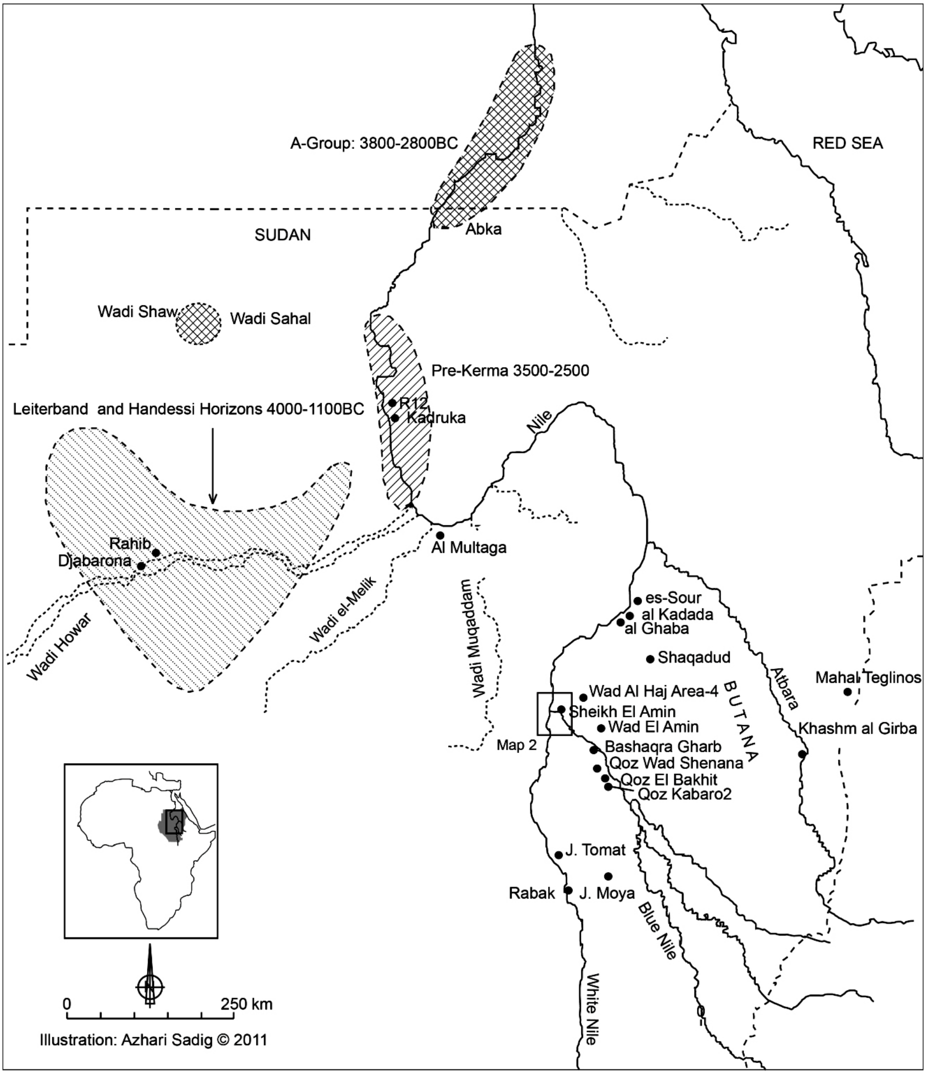

خريطة رقم (١)

السودان في فترة العصر الحجري الحديث

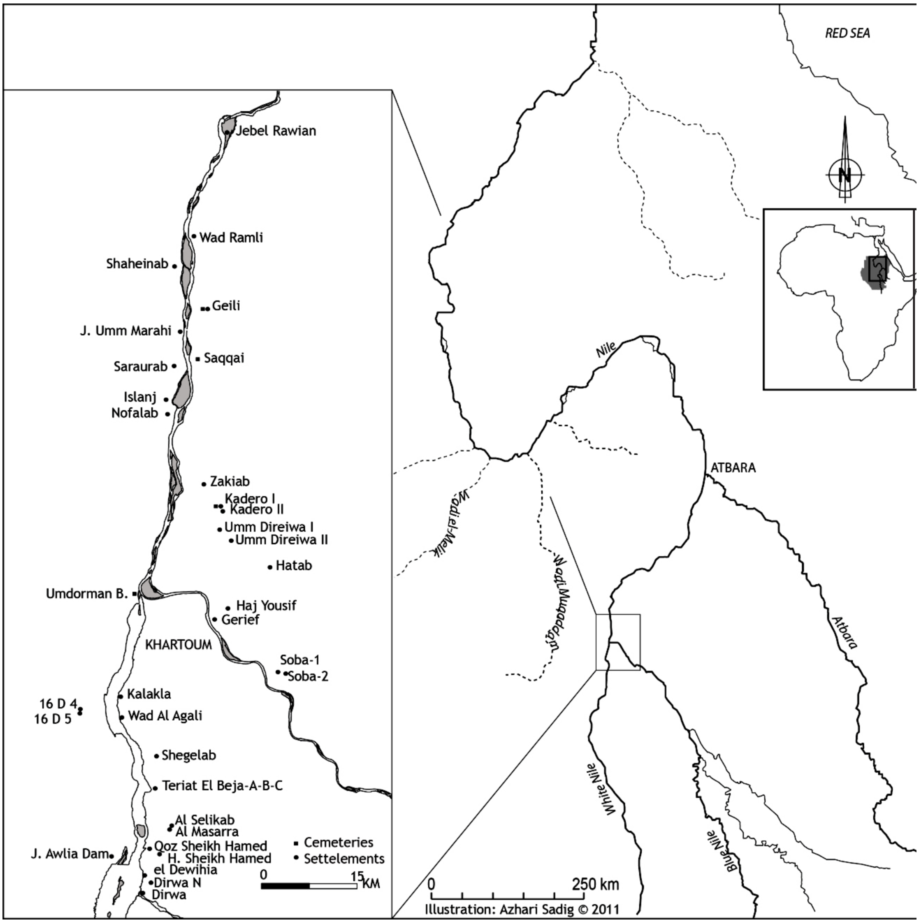

خريطة رقم (٢)

مواقع منطقة الخرطوم في فترة العصر الحجري الحديث